الغرام الجديد

للدكتور زكى مبارك

أخى الأستاذ الزيات :

تفضلت فسألت مرة أو مرتين أو مرات عن سبب احتجابى عن قراء الرسالة ، وكانت حجتى فى الاعتذار أن كتاب « ليلى المريضة فى العراق » لم يُبق من قواى ما أصلح معه لمقابلة الناس فى جِدّ أو مزاح ، وقد تلطفت فقبلت عذر أخيك ، وصفحت عن تقصيره إلى حين

فما رأيك إذا حدثتك بأنى كنت فى نشوة شعرية لم أصح منها إلا اليوم ؟

كنت يا صديقى مشغولاً بنظم قصيدة « الغرام الجديد » وهى تقع فى مئة بيت ، وذلك الغرام هو يا صديقى نفحة من نفحات القاهرة فى مطلع الربيع . هو ثورة وجدانية تعتاد من يفيق من غفوة القلب حين يتنسم أرواح الأزاهير على ضفاف النيل

أعاذنى الله وإياك من غفوة العواطف ، وحمانى وإياك من الغفلة عن تنادى القلوب !

* * *

يا قلبُ هـذا نعيمٌ من الصفاء وليد
يا قلب هذا سعيدٌ من الغرام جديد

لقيتُه وفؤادى غاف قريرُ السرائر
فعدتُ أحيا بروحٍ مشرَّدِ الأنس حائر

مَن يُخبرى عن نصيبي من ظلّ هذا النعيم ؟
من يخبرى عن مصيرى فى لفح هذا الجحيم ؟

كيف انتهينا ؟ أجبنى يا قلب كيف انتهينا ؟
أللنعيم وصلنا ؟ أم فى الجحيم ثوينا ؟

وبالوصال اصطباحُك يا قلبُ أم بالصدود ؟
وبالسهاد اغتباقك يا قلب أم بالهجود ؟

يا قلبُ طالت شكاتُك من الخدود الأسيله
فكيف تُرجَى نجاتُك من العيون الكحيله ؟

أحبُّ نور الضلال فى ضافيات الذوائر
ويزدهينى الخيال فى غافيات النواظر

رباهُ ماذا تريد من فتنى بالعيون ؟
رباهُ ماذا تريد من محنى بالشجون ؟

أأنتَ يا ربِّ راضٍ عن حيرتى فى الهُيام
إن كان هذا فإنى إذاً بىٌّ الغرام

عصرت راح غرامى من زاهرات الخدود
وكان نُقل مدامى من ناهدات النهود

يطوف بالحسن روحى فى صبحه والماء
فيجتنى من شذاهُ وشوكه ما يشاء

عن أكؤسى ودموعى رَوَى رحيقُ الخلود
عن مهجتى وضلوعى رَوَى سعيرُ الوجود

عن شقوتى فى هيامى رَوَى ظلامُ الليالى
وعن صفاء زمانى رَوَى صفاء اللآلى

أنا الشقىُّ السعيد فى لوعتى وشجونى
أنا الغويُّ الرشيد فى صبوتى وفتونى

من الهوى والأمانى ومن زهور الجنان
ومن فنون المعانى رشفتُ وجه الزمان

لولا غنائى وشعرى لمات رُوح الوجود
لولا بيانى ونثرى لضاع سرُّ الخلود

فى الثغر والصبح معنًى لمن أحبُّ شرحتُه
فى الحبر والليل سرٌّ أظننى قد فضحتُه

السحرُ يأخذ عنى علم اختداع النفوس
والخمر تنقل عنى علم انتهاب الرءوس

ما السيف فى يد عاتٍ مضلِّل الرأى جانى
يوماً بأفتك منى إذا امتشقت بيانى

أنى لو شئتُ ركنٌ من الرشاد حصينُ ... أو ظلال الجزيرة وفى شعاب الزمالك
والشكُّ لو شئتُ حصنٌ من اليقين حصينُ ... يهيم روحى ويشقى ويلاهُ مما هنالك !

للعقل عندى فنون وللجنون مذاهب ... يا ليتنى ما رأيتُكْ يا أجمل الحافظين
عندى بياض الصباح عندى سواد الغياهب ... يا ليتنى ما عرفتُكْ يا أقبح الغادرين

إن كان فى الناس قومٌ رأوا هلال السماء ... ما أنت والزاهرات على خدود الملاح
فى سرائر قلبى والروح ألف ذُكاء ... يا لوعتى فى الماء وفتنتى فى الصباح

ما عندكم ؟ حدثونى يا إخوتى فى الجنون ... أترتنى للصِّيال يا أُقْوان الرياض
فى غرامٌ وشوقٌ إلى حديث الفُتون ... وهجتنى للقتال يا أُقْوان الغياض

من الذى طاف منكم ليلاً بتلك المناسك ... أأنت ترمى وتمضى إلى رحاب الخلاص
ومن هداه هواهُ إلى ضلال الزمالك ؟ ... غرَّتك نفسُك فاعلمْ أن الجروحَ قصاص

فى ذلك الدوح غصنٌ لولا العفافُ هصرتُهُ ... فى لحظ عينيك نبلٌ وفى عيونى نبال
فى ذلك الروضُ زهرٌ لولا الحياء قطفتُه ... ونظرةُ الليث قيدٌ لألفِ ألفِ غزال

أباحنى فى التدانى والبعد عزّ الفضيحه ... حاول خلاصك واسلُكْ إلى النجاة الذاهب
وذاك لو يرتضيه فى الحبِّ خيرُ نصيحه ... فلن يفوتك سهمى ولو علوتَ الكواكب

لقيتُه ذات يومٍ فى العصر عند الجزيرة ... الرأىُ ، الرأىُ عندى إذا نشدتَ الأمان
والنيل سكرانُ صاحٍ مثل العيون الكسيرة ... أن تستحيل نسيماً ونفحةً من حنان

لقيتُ من لو دعانى إلى الفداء فديتُهْ ... عندى وفى ظل حبى تحسُّ روح الوجود
لقيتُ من لو دعانى بعد المات أجبتُهْ ... وفى ضريم غرامى ترى شعاع الخلود

لقيتُ فيه وجودى وكان بالصحو زالْ ... أنا النجىُّ القريب من القلوب الشوارد
فعدتُ نشوانَ حيًّا أعيش عيش الضلال ... أنا الظلوم الحبيب إلى الصدور النواهد

رأيتُ حين رأيتُهْ ما سوف يجنى الصفاء ... رباهُ ما الصادحات من ضاحكات الأمانى
فصاح روحىَ يهذى ما الحبُّ إلاَّ بلاء ... رباهُ ما النائحات من شاديات المثانى

أذاكَ نورٌ جديد يلوح فى قلب شاعر ... رباه ما الشارقات من النجوم الثواقب
أم ذاكَ روحٌ مَريد يصول فى قلب ساحر ... رباه ما الغاربات من الظنون الكواذب

كان الفؤاد استراح من فاتكات الشجون ... رباه كيف ترانى وكيف حالىَ عندك ؟
فمن إليه أتاح كيدَ الهوى والفتون ... هل كنت فى كل حالٍ إلاَّ فتاك وعبدك ؟